الأنانية فى
ماساتى ألكستيس وميديا
ليوريبيديس

بحث مقدم من

د. ليلى عبد المنعم

الأنانية فى مأساتى ألكستيس وميديا ليوربيديس

بحث مقدم من د. ليلى عبد المنعم

فى إلياذة "هوميروس" تهتز أمامنا شخصية أخيليوس البطولية فى بعض اللحظات ، حينما يرفض الاستمرار فى الحرب إثر غضبه من "أجاممنون"[1]، وحينما يعلن ـ فى يأس ـ أن سعادته الشخصية فوق سعادة "أجاممنون" ، وأن الثروة تأتى فى المقام الأول قبل النصر [2]، كما أن الحياة والأسرة تأتيان قبل المجد والموت المبكر [3] . لكن "أخيليوس" ، سرعان مايتجاوز مشاعر النفعية والأنانية ، بعد مصرع "باتروكلوس" ، ويعود ـ مرة أخرى ـ إلى مواصلة القتال ، لأن شعوره بالواجب والمصلحة العامة كان كامناً فى وجدانه طوال الوقت .

وفى مأساة "فيلوكتيتس" نُفاجأ بأن "نيوبتوليموس" ، بما فطر عليه من أخلاق بطولية نبيلة[4]، تغريه المنفعة الشخصية το κερδος ـ المتمثلة فى حصوله على أسلحة "فيلوكتيتس" ـ على القيام بخداعه [5] . لكن المأساة لاتنتهى قبل أن يتخلى "نيوبتوليموس" عن أنانيته ومنفعته الشخصية ، ويعود إلى التمسك بالحق والعدل ξυν τω δικαιω [6] ، ومن ثم يعيد إلى فيلوكتيتس أسلحته .[7]

فإذا كان "أخيليوس" عند هوميروس ، و"نيوبتوليموس" عند سوفوكليس تتشابهما ـ لفترة وجيزة ـ رغبة فى تحقيق المنفعة الشخصية فيتصرفان بأنانية سرعان مايتخليان عنها ، فإننا نجد عند يوربيديس ـ على النقيض منهما ـ شخصيتين أنانيتين φιλαυτοι تسعيان إلى تحقيق المنفعة الشخصية το συμφερον أو κερδος أو ονησις بصلابة وعناد وكأنهما يستجيبان إلى قيمة أخلاقية واجبة الأداء . بل إن مايزيد معالم هاتين الشخصيتين تركيزاً وتفرداً أنهما زوجان ، وأن أنانيتهما تتمحور حول علاقتهما بالزوجة والأسرة ، فى حين أن علاقة الرجل بزوجته وأسرته أساسها التراحم والعطاء بعيداً عن النفعية أو الأنانية . وأحد هاتين الشخصيتين هو "ادميتوس" فى المأساة المسماة باسم زوجته

"ألكستيس" ، والآخر هو "ياسون" فى المأساة المسماة باسم زوجته "ميديا" .

" كانت للعلاقةالزوجية ــ فى واقع الأمر ــ أكثر نقاط الضعف فى الأسرة اليونانية[٨]. ويمكن القول إن هاتين المأساتين تعكسان ــ بجلاء ــ اهتمام "يوريبيدس" بقضية علاقة الرجل بالمرأة ، كما أنهما تقدمان ــ فى الوقت نفسه ــ دليل براءته من تهمة عدائه للمرأة ، والذى توحى به قسوة بعض كلمات مأسيه [٩] ، ذلك لأنه ينتقد ــ فى مأساتى ألكستيس و ميديا ــ أبناء جنسه من الرجال .

فإذا أخذنا فى الاعتبار أن المأساة اليونانية تعكس ــ إلى حد ما ــ بعض الأحداث والأحوال المعاصرة [١٠] ، فإن مايعلنه ــ هنا ــ بعيداً عن قضية عداء "يوريبيدس" أو مناصرته للمرأة أن "يوريبيدس" ــ بوصفه كاتباً واقعياً ــ ينبه من خلال هاتين المأساتين إلى خطورة النفعية والأنانية وأثرهما فى انهيار الأسرة والمجتمع .ويبدو أن الأنانية والنفعية كانتا من أمراض عصر يوريبيدس الذى نجد وصفاً له فى قول ثيوكيديدس " إن الناس قد أقبلوا على المتعة ولعدم لديهم الخوف من الآلهة والقانون "[١١] .فيبدو أن التشكك فى قوى الآلهة كان يمثل استعداداً عند للقاعدة العريضة للمجتمع الأثينى منذ أواسط القرن الخامس ق.م ، لايلبث أن ينفجر إذا تعرض المجتمع لشدة من الشدائد ، كما حدث عندما ألم الوباء بالأثينيين فى ٤٣٠ق.م [١٢] ، وهو مايصفه لنا "ثيوكيديدس" بوضوح فى قوله " أما عن الآلهة ، فيبدو أن الأمر أصبح متساوياً سواء فى ذلك أتعبد الناس لهم أم لم يتعبدوا ، طالما أن الموت (من أثر الوباء) كان يحل بالأخيار والأشرار دون تمييز [١٣] . وعلى الرغم من أن الفضيلة تقتضى ــ بما لايدع مجالاً للشك ــ اتباع الحق والعدل δικαιον بصرف النظر عن المتعة أو المنفعة [١٤] ، فإن الميل إلى المنفعة το συμφερον ــ فى ذلك العصر ــ كان قوياً[١٥] .

ونبدأ بمأساة "ألكستيس" التى تواجهنا بأن أجل "أدميتوس" قد دنا ، إلا أن القدر سيطيل عمره شريطة أن يتقدم أحد أقربائه إلى الموت عوضاً عنه [١٦] . ومن الغريب أن "أدميتوس" لايتردد فى قبول هذا العرض ، بل أنه يطلب من أبويه ــ بإلحاح ــ أن يفتديه بحياتيهما[١٧]،

وذلك من فرط أنانيته . وحينما يرفض الأبوان هذه التضحية ، وتقبلها ــ فى عطاء نادر ــ زوجته " ألكستيس " [٢٨] ، بالرغم من حبها للحياة [٢٩] ، فإن أنانيته تدفعه لقبول تضحية زوجته بحياتها من أجله [٣٠] . وبالرغم من أن المدينة بأسرها تعرف بأمر تلك التضحية [٣١] ، فإن "أدميتوس " ــ وكأنه لم يفعل شيئاً غريباً ــ يواجه الجميع دونما خجل ، ودون أن يدرى عاقبة أفعاله ، شأنه فى ذلك شأن الأبطال التراجيديين ، بينما تنبىء بداية المأساة بشقائه ، وذلك على لسان خادمة القصر :

ουπω τοδ οιδε δεσποτης , πριν αν παθη [٣٢]
لن يعرف سيدى ذلك قبل أن يعانيه

τοσουτον αλγος , ου ποτ ου λελησεται [٣٣]
مثل هذا العذاب العظيم لاينسي أبدا .

وعندما يظير " أدميتوس " ــ للمرة الأولى ــ فى أثناء احتضار زوجته الشابة "ألكستيس " ، يكون قد بدأ يقطف ثمار أنانيته المرة . إنه يدرك ــ بعد فوات الأوان ــ أن زوجته لاتستحق الموت [٣٤] ، ولايكاد يصدق أن الموت واقع لامحالة ، وأن الأمر قد أفلت من بين أيديهما ، فيهز جسد زوجته ــ فى هستيرية ــ راجياً إياها ألا تتركه وحيدا :

επαιρε σ αυτην , ω ταλαινα , μη προδω [٣٥]
انهضى أيتها الشقية ، لاترحلى

وحينما تتمكن "ألكستيس " ــ فى أثناء احتضارها ــ من مخاطبة زوجها [٣٦] ، فإن حديثها ينصب ــ بصفة أساسية ــ حول مصير أطفالهما ، أما " أدميتوس " فتكتفى بأن تذكره بأنها ضحت من أجله ، وكأنها بذلك تذكره بأنانيته ، بالإضافة إلى أنانية والديه . وتشعر "ألكستيس" ــ من ذلك المنطلق ــ بأن من حقها أن تلزم زوجها ألا يتزوج بعد موتها

حتى لا يكون الشقاء مصير أطفالهما . إنها ــ فى الواقع ــ تطلب ثمنا لما فعلته من اجله ، وإن كانت تتظاهر بعكس ذلك :

αιτησομαι γαρ σ αξιαν μεν ουποτε [٢٧]

لذلك فلن أسألك أبداً هذا المعروف

وإذا كانت " ألكستيس " توجه ــ فى أثناء احتضارها ــ جل اهتمامها إلى أطفالها ، فذلك لأنها لم تعد تهتم بأدميتوس الذى تسببت أنانيته فى موتها ، فنحن نلاحظ أن " ألكستيس " تعامل زوجها فى فتور يتجلى فى قولها " إن الزمن سيخفف عنك [٢٨] χρονος μαλαξει σε، وذلك حينما ترد على شكواه مما سيعانيه فى الحياة بدونها [٢٩] . كما نلاحظ أيضاً أن "ألكستيس " تتعامل مع " أدميتوس " فى سخرية واستهزاء ، فحينما يعبر " أدميتوس " عن رغبته فى الموت [٣٠] ــ بعد أن أصبحت الحياة قاسية بدون " ألكستيس " ــ نجد " ألكستيس " ترد عليه ــ فى استهزاء ــ قائلة :

αρκουμεν ημεις οι προθνησκοντες σεθεν [٣١]

يكفينا نحن أن يكتب علينا الموت قبلك

أما " فيريس " والد " أدميتوس " ــ الذى يظهر للمرة الأولى فى أثناء إعداد جنازة "ألكستيس " ــ فلايخلو أيضاً من أنانية ، إنه يواسي ابنه بفتور [٣٢] ، ثم لايخفى شعوره بالارتياح لتضحية " ألكستيس " بحياتها من أجل ابنه لأنها أنقذته ــ شخصياً ــ من معاناة مشاعر الشيخوخة وآلامها بدون ولده [٣٣] ، ثم يكشف عن أنانيته كشفاً صريحاً عندما يعبر عن رأيه فى الزواج فيقول :

.....φημι τοιουτους γαμους

λυειν βροτοισιν , η γαμειν ουκ αξιον (٣٤)

أقول أن مثل هذه الزيجات تريح الناس

وإلا انعدمت قيمة الزواج

وربما أمكننا القول إن " يوريبيديس " قد رسم شخصية والد " أدميتوس " على هذا النحو بغرض تعميق أو تأصيل أنانية " أدميتوس " لأن الابن قد تأثر ــ فيما يبدو ــ بشخصية أبيه . ومن ناحية أخرى فإن " يوريبيديس " عندما يضع الشخصيتين الأنانيتين ــ الابن والأب ــ في مواجهة بعضهما ، فإنه يضعنا أمام موقف ساخن تتبادل خلاله الشخصيتان الكلمات الحادة العنيفة ، فالابن ــ الذي اتخذ من قبل موقفاً عدائياً من أبيه لرفضه فدائه بروحه [٣٥] ــ يتجرد الآن من مشاعر البنوة ، ويهدد أباه بعدم المشاركة في دفنه والعمل على تشويه سمعته بين الناس [٣٦] . أما الأب الذي يعرف ابنه جيداً ، فإنه ــ بعد أن يوجه إليه سيلاً من الشتائم [٣٧] ــ لا يجد بداً من مواجهة ابنه بعيبه ــ بأنانيته ــ مواجهة صريحة ، ويقدم على ذلك دليلاً بعد آخر :

....., οφειλω δ ουχ υπερ θνησκειν σεθεν
ου γαρ πατρων τονδ εδεξαμην νομον,
παιδων προθνησκειν πατερας , ουδ Ελληνικον [٣٨]

ليس ثمة مايلزمني على الموت من أجلك
لأنني لم أرث هذا التقليد عن آبائي
وهو أن الآباء يموتون بدلاً من أبنائهم ، إن هذا ليس تقليداً يونانياً

χαιρεις ορων φως . πατερα δ ου χαιρειν δοκεις [٣٩]
أتسعد أنت برؤية الضوء ، وتظن أن أباك لا يسعد به ؟

νομιζε δ , ει συ την σαυτου φιλεις
ψυχην , φιλειν απαντας [٤٠]
إذا كنت أنت تحب نفسك
فتذكر أن الجميع (أيضاً) يحبون أنفسهم .
ψυχη μια ζην , ου δυοιν οφειλομεν [٤١]
مكتوب علينا أن نعيش مرة واحدة لا مرتين

على أن الفارق بين أنانية فيريس وابنه أدميتوس هو أن " أدميتوس " ــ شأن الأبطال التراجيديين ــ لايعترف بخطئه ، وإنما يتمادى فيه ويشعر بأنه ضحية الآخرين ، إلى أن يدرك فى نهاية الأمر أنه ضحية نفسه فحسب . فمما نلاحظه فى نهاية موقف المواجهة بين "فيريس " وابنه " أدميتوس " أن "أدميتوس" لم يعترف بأنانيته أو يقر بخطئه ، بالرغم من أن أباه قد قدم ــ كما بينا ــ أكثر من دليل على ذلك ، بل مازال " أدميتوس " يضع مشاعره ورغباته الشخصية فوق أى اعتبار آخر ، لذلك يقرر هجر أبويه لأن كليهما لم يضحيا بحياتهما من أجله [٤٢] .

وإذا كانت مواجهة والد " أدميتوس " الحادة لابنه لم تنجح فى أن تضعه فى مواجهة شجاعة أمام حقيقة شخصيته ، فذلك يرجع ــ فى تصورنا ــ إلى أمرين : أولهما : إيمانه الزائد بنفسه الذى يضع ــ كما أسلفنا الذكر ــ غشاوة كثيفة أمام عينيه ، أما الأمر الثانى : فيتمثل فى أن جنازة " ألكستيس " تقع أحداثها عقب خروج والد " أدميتوس " مباشرة ، وبذلك يوجه " أدميتوس " كل مشاعره إلى ذلك الحدث دون أن يلتفت إلى كلمات والده أو يتدبرها ، فالوقت لم يكن مناسباً لذلك .

على أن اكتشاف " أدميتوس" خطأه لم يتأخر طويلا ، إنه يبدأ عقب مواراة جثمان زوجته " ألكستيس " التراب ، حيث نجده يعترف ــ فى مرارة ــ بأنه أخطأ αμαρτειν فى حق زوجته المخلصة[٤٣] . والأمر الجدير بالاعتبار ، أن " يوريبيدس " قد ركز مأساة "أدميتوس " فى يوم واحد هو اليوم الذى كان مقدراً أن يلقى فيه حتفه ، فإذا بزوجته تفتديه بروحها ، وهو نفس اليوم الذى يكتشف فيه خطأه بعد دفن زوجته . والواقع أن " يوريبيدس " يلقى على الموقف سخرية تراجيدية ، ففى اللحظة نفسها التى يكتشف فيه " أدميتوس " نفسه ، يكتشف أنه خسر الحياة ، أو لايستحق الحياة [٤٤] ου χρην ζην ، ذلك لأنه قد خسر ألكستيس " ، وفقد بيته [٤٥] ، وسعادته واحترام الناس [٤٦] . إن الحقيقة التى توصل إليها "أدميتوس " هى أن الموت لا فرار منه ، فإن قدر لإنسان أن ينجو منه ــ مثلما فعل ــ فإن الحياة نفسها تصبح موتا ، كما يصبح البيت قبرا . لقد كان " أدميتوس " يبحث عن الحياة ، فإذا به يجد الموت ! عندئذ فقط يعترف " أدميتوس" بأنه قد تعلم بالفعل αρτι μαν θανω [٤٧] .

وفى الوقت الذى يكتشف فيه " أدميتوس " نفسه ، ويدرك حقيقة الحياة من حوله ، ويصبح إنسانا جيدا . فى ذلك الوقت يتمكن " هيراكليس " من انتشال " ألكستيس " من الموت ، وإعادتها إلى الحياة . ثم لا يلبث أن يأتى بها إلى " أدميتوس متخفية ، ويقدمها إليه بوصفها إحدى الخادمات [٤٨] . وهذا المشهد ــ الذى يجمع بين الأطراف الثلاثة " هيراكليس " و"أدميتوس" والمرأة ويجرى فيه" هيراكليس" حواراً ذكياً مع " أدميتوس "،تلزم المرأة أثناءه الصمت ــ يكشف عن حزن " أدميتوس " الشديد على فقدان زوجته ولهفته عليها [٤٩]، وكراهيته للحياة μηκεθ ηδεσθαι βιω [٥٠] .

ويهدف حوار " هيراكليس " مع " أدميتوس " ــ أمام " ألكستيس " المتخفية ــ إلى التأكيد ــ أمامها ــ على أن " أدميتوس " قد تخلص ــ بالفعل بعد معاناته ــ من أنانيته ومن نظرته الضيقة للحياة والموت . وينتهى هذا المشهد بتعرف " أدميتوس " على زوجته [٥١] . وعندما تعود الحياة الحقيقية إلى " أدميتوس " بعد أن اكتشف أن حياته ــ التى دفعته أن تكون حياة "ألكستيس " ثمنها ــ كانت ــ فى واقع الأمر ــ موتا . وهو حين يصور مأساة "أدميتوس " على هذا النحو ، فإنه يحذر من عاقبة الأنانية .

وننتقل الآن إلى مأساة " ميديا " ، لنقدم نموذجاً آخر للشخصية الأنانية ، وماتجنيه من آلام من جراء ذلك . تكشف أولى كلمات مأساة ميديا عن أنانية " ياسون " ، حين تقول المربية أن زوجته قد فعلت كل مايمكن أن يحقق المنفعة لياسون αυτη τε παντα ξεμφερουσ Ιασουνι [٥٢] ، إلا أنه يهجرها الآن ليتزوج ابنة " كريون " ملك كورنثا [٥٣] . يتضح لنا أن " ياسون " شخصية قاسية لا تراعى مشاعر الآخرين [٥٤] ، ذلك لأنه يتصف بأنانية طاغية[٥٥] ، إنه شخصية تعودت أن تأخذ دون أن تعطى . لقد كانت " ميديا " ذات نفع وفائدة ξυμφερουσα ، والآن باتت ابنة " كريون " أكثر نفعا . وأشد مايدعو للأسف أن أنانية " ياسون " تكاد تكون ظاهرة عامة كما يقول مربى أطفال " ميديا " :

ως πας τις αυτον του πελας μαλλον φιλει [٥٦]

إن كل امرىء يحب نفسه أكثر مما يحب غيره

هكذا تتلقى " ميديا " صدمة عنيفة تكاد تقضي عليها [٥٩] ، ويتملكها إحساس بالمهانة δυσκλεια [٦٠] . ويزداد موقفها سوءاً حينما تُفاجأ بأن الملك " كريون " يصدر أمراً بنفيها من " كورنثا " ، ويمهلها يوما واحداً فقط لتنفيذ هذا القرار [٦١] . هكذا يعرض "ياسون" زوجته لمحنة قاسية تواجهها بمفردها في بلد غريب دون أم أو شقيق أو قريب [٦٢]. وحينما يظهر " ياسون " ــ للمرة الأولى ــ [٦٣] ، تطل علينا شخصيته الأنانية بكل قسوتها ، فهو لا يقدر محنة " ميديا " ، ويخاطبها ــ في أول لقاء يجمع بينهما في المأساة ــ بنغمة حادة ، ولايخجل من قرار " كريون " في إبعادها عن " كورنثا " [٦٤] . ويتعامل " ياسون " مع زوجته في برود وصلف ، فعندما تذكره بما فعلته من أجله [٦٥] ، لا يعترف بهذا الفضل ، وإنما يجيبها بأن حبها له هو الذي اضطرها إلى ذلك [٦٦] ، ويدعي أنه قد تفضل عليها بأن نقلها من بلادها البربرية إلى بلاد اليونان [٦٧] . والجدير بالذكر ــ هنا ــ أن " ياسون " لم يصف من قبل بلاد " ميديا " بالبربرية ، ذلك لأنه كان يسعى ــ وقتئذ ــ إلى منفعته الشخصية ، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأنه شخصية أنانية .

ومن اللافت للنظر أن " ياسون " لا يخفي في ذلك المشيد أن زواجه من ابنة "كريون" يستهدف المنفعة الشخصية المتمثلة في رغبته في حياة رغدة ومكانة اجتماعية مرموقة له ولأسرته [٦٨] ، في حين يخفي ذلك الدافع ــ بطبيعة الحال ــ عن " كريون " وابنته، متلما فعل مع " ميديا " من قبل . وفي تصورنا أن كشف " ياسون " ــ هنا ــ عن ذلك الدافع يؤدي إلى نتيجتين ، أولاهما أن اعترافه بأنانيته ، ونظرته المادية للحياة ، يعزز رأي الآخرين فيه ، فضلاً عن أنه يدل على أنه ــ على خلاف الآخرين ــ لايجد في نفسه عيبا . أما النتيجة الثانية فهي الإيحاء بإخفاقه في فهم جوهر شخصية " ميديا " ، فهو يتصور أنها سترحب بهذا الزواج ، مادام الدافع إليه ينحصر في تحقيق المنفعة الشخصية ، في حين أن "ميديا " ــ على خلاف " ياسون " ــ لها قيمها الخاصة ، فالماديات ــ عندها ــ لا تعوض الإحساس بالألم :

η πολλα πολλοις ειμι διαφορος βροτων [٦٩]
إنني أختلف كثيراً عن كثير من البشر

μη μοι γενοιτο λυπρος ευδαιμων βιος [٦٨]

ليتنى لا أنعم بهذه السعادة ، إنها حية مؤلمة

وعلى الرغم من أن " ميديا " شخصية عاطفية ، تضع عاطفتها فوق كل اعتبار ، فإن سيطرة مشاعر الأنانية والنفعية على شخصية " ياسون " توقعه فى خطأ سوء فهم التقدير αμαρτια δοξης ، الذى يتمثل فى أنه بات يرى الآخرين من منظور قيمه الشخصية ، حتى أنه يتوهم أن " ميديا " ممكن أن تكون نفعية مثله ، وأنه يمكن إرضاؤها بالثروة [٦٩] . ويطالبها – فى الوقت نفسه – بالتروي والرضا عن الزواج مقابل أفضل المكاسب :

ληξασα δ οργης κερδανεις αμεινονα (٧٠)

كفى عن غضبك وأنت تفوزين بأفضل الأشياء

إلا أن " ميديا " تشعر بأنه جرح كبرياءها جرحاً عميقاً [٧١] ، فترفض الصفقة – فى كبرياء وضجر – فهى لن تعطيه شيئاً ، ولن تأخذ منه شيئا :

ουτ αν τι δεξαιμεσθα , μηθ ημιν διδουν [٧٢]

لن نقبل شيئاً وأنت لاتعطينا شيئا .

وبعد أن ينتهى اللقاء بين الزوجين بفشل كلا الطرفين فى إقناع الآخر بمنطقه الخاص، يأخذ كلاهما طريقين مختلفين ، فميديا تبدأ الإعداد للانتقام من أنانية زوجها ، أما " ياسون " فيسعى للإعداد للزواج الذى سيجنى من ورائه مكاسب جمة . فى ذلك الوقت يصل " آيجيوس" ملك " أثينا " ، بعد أن قام بزيارة إلى معبد " أبوللو " ليسأله أن يهبه ذرية [٧٣] .

ويبدو لنا أن ظهور " آيجيوس " فى ذلك الوقت – على وجه الخصوص – يستهدف عقد مقارنة بين حالتى " ياسون " و " آيجيوس " ، وهى مقارنة ليست فى صالح " ياسون "، الذى يتخلى – بكل أنانية – عن أطفاله من أجل تحقيق منفعة شخصية .

وفوق ذلك ، فإن ظهور " آيجيوس " ملك " أثينا " بعد تأزم العلاقة بين " ميديا "

و"ياسون" ، وعقدها العزم على الانتقام منه ، يعيد في إيجاد أمل لدى "ميديا" في ملاذ يأويها ويحميها بعد فرارها من "كورنثا" . والملاحظ أن "ميديا" تتهيأ حاجة "أيجيوس" الملحة إلى الإنجاب فتلوح له بقدرتها السحرية على تحقيق رغبته حتى تحصل منه في المقابل على الحماية ، فإذا بأيجيوس يقبل العرض في الحال دونما تردد [٧٤] .

ويعبر هذا الموقف عن ذكاء "ميديا" [٧٥] ، كما يوضح أنه تتبنى ـ مؤقتاً ـ قيم "ياسون" المادية بغرض الوصول إلى هدفها ، وهو الانتقام من أنانية "ياسون" . ونلاحظ ـ هنا ـ أن "ميديا" لا تنهي الصفقة مع "أيجيوس" قبل أن يقسم على توفير الحماية لها :

εσται ταδ αλλα πιστις ει γενοιτο μοι
τουτων , εχοιμ αν παντα προς σεθεν καλως [٧٦]

فليكن ! إنما ياليتني أحصل على قسم
بتلك الأمور ، عندئذ أحصل منك على كل مافيه خير .

وتبدأ أول مراحل خطة انتقام "ميديا" من "ياسون" بأن تتظاهر بأنها اقتنعت بقيمه المادية ، فهي تطلبه مرة أخرى لتسأله المعذرة عما بدر منها [٧٧] ، ثم تأخذ في تأنيب نفسها بحدة ـ أمامه ـ حتى توهمه بأنها اقتنعت بموقفه ، وباتت لا تعارض زواجه من ابنة "كريون" :

σ χετλια , τι μαινομαι .....
και δυσμναινω τοισι βουλευουσιν ευ ,
εχθρα δε γαιας κοιρανοις καθισταμαι
ποσει θ , ος ημιν δρα τα συμφορωτατα, (٧٨)

ياليؤسي ! هل لحق بي الجنون
وقد ثبورت على من يسدون لي عظيم النصح،
وجعلت من نفسي عدواً لمن يحكمون الأرض
ولزوجي الذي يعمل على ما فيه نفعي .

ومما لا شك فيه أن تظاهر "ميديا" بالاقتناع يدفع "ياسون" إلى الزواج من ابنة "كريون" وموافقتها عليه ، سيل لها المضي في تنفيذ خطة انتقامها . ولم يساور "ميديا" الشك

لحظة واحدة في أن زوجها قد يكشف ادعاءها ونفاقها ، ذلك لأنها تعرف شخصية زوجها حق المعرفة [٧٩] . ومن الغريب أن " ياسون " يطمئن إلى " ميديا " ، ويصدق أنها تغيرت بالفعل ويثني عليها αινω , γυναι [٨٠] . ولعل هذا يعني أن " ياسون " لايفهم " ميديا" جيدا — على العكس منها — أو أن إيمانه الزائد بقيمه يصور له غلبة هذه القيم على أية قيم أخرى ، أو يوحي إليه بأن " ميديا " يمكن أن تتأثر به أو تصبح صورة منه .

وتنجح " ميديا " في كسب ثقة " ياسون " ، حينما تفاجئه بإرسال هدية إلى زوجته الجديدة تتكون من ثوب مطرز وتاج ذهبي ، بعد أن تكون قد دهنتيما — دون علم " ياسون " بمادة مميتة . وبينما لا يشك " ياسون " — بسبب إيمانه الشديد بذاته — في أمر الهدية ، وإنما يكتفي بالقول بأنه لايجد ضرورة لها [٨١] ، فإن " ميديا " ترد عليه بعبارة لا يفهم منها "ياسون " سوى معناها الظاهري ، في حين أنها تحمل في طياتها سخرية مرة منه ، وإشارة دافعة إلى عيبه الجوهري ، إيمانه بالقيم المادية :

χρυσος δε κρεισσων μυριων λογων βροτοις [٨٢]

أما الذهب ، فهو أقوى — عند الناس — من الكلمات الفياضة

وسرعان ماتؤتي هدية " ميديا " المميتة ثمارها ، إذ يعلن الرسول مصرع ابنة "كريون" وأبيها [٨٣] ، وهنا يبقى أمام " ميديا " أن تقتل أبناءها في الحال [٨٤]، حتى يكتمل انتقامها من " ياسون " . وعلى الرغم من إحساس " ميديا" ببشاعة قتل أطفالها ، وترددها في ذلك كثيرا [٨٥] ، فإنها لا تقاوم رغبتها في أن يكون انتقامها من " ياسون " عنيفاً ، حتى لو كان ثمن ذلك هو قتل أطفالها [٨٦] .

ولقد كان القضاء على أطفال " ياسون " بمثابة القضاء عليه απωλεσας [٨٧] ، بل أن " ميديا " تريده — فوق ذلك — أن يكون مصدر ألم دائم لياسون [٨٨] ، لذا فهي تحاول أن تشعره بعقدة الذنب ،حينما تقول أن السبب في قتلهم هو إفراطه في حبه لذاته وزواجه الجديد αλλ υβρις οι τε σοι νεοδμητες γαμοι [٨٩] ، مما يصيبه بوخز الضمير δηξεται [٩٠] ، وتؤكد له أن الألم الحقيقي — من فقدان الأبناء — مينتابه حينما يتقدم به العمر :

ουπω θρηνεις . μενε και γηρας [٩١]

لا تبك الآن وانتظر الشيخوخة

وهكذا فإن خطأ " ياسون " المأساوى يكمن فى إيمانه الزائد بقيمه الشخصية من أنانية ونفعية ، دون الاهتمام بمشاعر زوجته " ميديا " ، أو برأى الآخرين فيه ، بل أنه يتوهم أن "ميديا" قد تبنت قيمه ، فى حين يتضح له ــ فيما بعد ــ أنها صورت له ذلك حتى يطمئن إليها ، فيسهل عليها الانتقام منه . وحينما تنتقم " ميديا " من " ياسون " ، فإنها تنتقم من تلك القيم التى عرضتها لمحنتها القاسية .

وقد حرصنا فى معالجة قضية الأنانية ، من خلال تحليل دوافع ومبررات أفعال "ياسون" و " أدميتوس " فى إطار علاقتهما بأسرتيهما ، أن نركز فى إشاراتنا النصية على القيم الشخصية والمادية الصرفة التى تحرك هاتين الشخصيتين ،على نحو يميزهما عن غيرهم من شخصيات أخرى ــ لدى كتاب آخرين ــ ممن يتوافر فيها إحدى ملامح الأنانية .ومن نماذج هذه الشخصيات " أخيليوس " الذى تتمثل أنانيته فى عزوفه عن الحرب . إلا أننا نتفهم أنها مجرد انفعال غاضب يقابل به الاعتداء على قيمة أخلاقية هامة ألا وهى كرامته وكبرياؤه البطولى . وعلى أية حال فإن شعور " أخيليوس " بالواجب والمصلحة العامة ــ الذى كان كامناً طوال الوقت ــ يتغلب فى نهاية الأمر على ما أبداه من مشاعر نفعية أو أنانية . ولدينا ــ فى هذا المجال ــ مثال آخر هو " نيوبتوليموس " الذى ترجع أنانيته إلى خلط متعمد من جانب " أوديسيوس " بين مصلحة الوطن ومصلحة " نيوبتوليموس " الشخصية ، وحينما أدرك الأخير المأزق الذى أوقعه فيه دهاء " أوديسيوس " ، فإن خلقه البطولى وإيمانه بالفضيلة αρετη أمليا عليه التخلى عن منفعته الشخصية فى الحصول على أسلحة " فيلوكتيتيس ".

والواقع أن قيمة الإنسان المتميز كانت إحدى القيم الحضارية فى المجتمع اليونانى ، إذ كان اليونانيون يؤمنون فعلاً بوجود أمثلة لهذا الإنسان المتميز منذ عصر " هوميروس " ، وكانت هذه الفكرة واحدة من الأفكار التى وصلت فى بلاد اليونان بصورة عامة ، وفى أثينا بصورة خاصة ، إلى قمتها فى القرن الخامس ق. م [٩٢]، وربما جاز لنا القول أن "أخيليوس"

و " نيوبتوليموس " ، باختياراتهما الأخلاقية وجلدهما البطولي ، يمثلان نموذجين بارزين للإنسان المتميز ، أو بالأحرى عصر الإنسان المتميز .

أما عصر " يوريبيديس " فهو عصر الضياع أو انهيار القيم بسبب ويلات الحروب البلوبونيسية . وفي كل مسرحيات " يوريبيديس " يميل الشاعر إلى تصوير شخصياته في صورة لا تختلف كثيراً عن الفرد العادي ، بحيث تصبح هذه الشخصيات منسجمة تماماً مع عصر الشاعر بكل عيوبه وأمراضه الاجتماعية . ونجد صورة ساخرة لعيوب ومشاكل هذا العصر في الكوميديا القديمة التي يمثلها " أرسطوفانيس " ، وتنقلها لنا كوميدياته (الأخارنيون، والسلام ، وبرلمان النساء ، وغيرها) ولاشك أن آثار عصر الحروب البلوبونيسية لم تنته بانتهاء تلك الحروب ، إذ يمكن القول إن إقدام " أفلاطون " على تأليف "محاورة الجمهورية " ، — التي يقدم فيها مشروعاً لدولة جديدة ، ويخصص الكتاب السابع فيها كله للدعوة إلى نظام تربوي وتعليمي، يعالج فيه أخطاء الأسرة وعلاقاتها من خلال الدولة ، لا من خلال الأسرة[٩٣] — ليس إلا استجابة للآثار التي خلفتها الحروب البلوبونيسية على المجتمع الأثيني .

وهكذا فإن " يوريبيديس " ، بوصفه معلماً وكاتباً اجتماعياً ، يقدم نموذجين من الحياة هما " أدميتوس " و " ياسون " ، يصوران مرضاً اجتماعياً من أمراض ذلك العصر، وهو الأنانية ، التي تحمل كلاهما عاقبتها بقدر متباين . ففي حين أن " أدميتوس " يتخلص من شقائه ومعاناته ، بعد أن تخلص من أنانيته ، فإن " ياسون " تطبق عليه الكارثة قبل أن يستوعب الدرس .هذا المرض الاجتماعي يؤدي — كما بيننا قدر جهدنا — إلى انهيار الأواصر الأسرية وتقويض أركان البيت ، ومن ثم فإنه يهدد المجتمع اليوناني .ولاشك أن الشقاء الذي تعرضت له الشخصيتان " أدميتوس " و "ياسون " ، هو صيحة تحذير يطلقها " يوريبيديس " على مسامع جمهور المسرح اليوناني وبصره .

الحواشى

1) IL. 1 , LL. 152-156
2) Ibid, VI, LL. 398-404.
3) Ibid,VI,LL 414-415.
4) Phil ,LL88-91.
5) Ibid,LL120-122.
6) Ibid,1252.
7) Ibid,LL.1291-1304
8) Cadwell,Richard Smith, The Psychoanalytic Criticism Of Aeschylean Tragedy , Theory And Practice : Ph .D.Diss. Univ. Of Minnesota ,Microfilmed,1973, PP. 62-63.

9) انظر على سبيل المثال هيبوليتوس ، الأبيات ٦١٦-٦٣٩ ، وقارن من ناحية أخرى ، كلماته الرقيقة المتعاطفة مع هموم المرأة فى مأساة " ميديا " الأبيات ٢٣٠-٢٥١.

10)Campbell,Lewis ,Tragic Drama In Aeschylus,Sophocles &Shakespear An Essay , London, 1904, P. 34.

11)Thuc. II. Liii.4

12) يحيى - لطفى عبد الوهاب ، الأسطورة والحضارة والمسرح فى مأساة أوديب ملكاً، عالم الفكر ، المجلد السادس عشر، العدد الثالث ، ١٩٨٥،ص١٠٣.

13)Thuc. II,52,3-4.
14)Creed , J.L., Moral Values In Thucydides , Time , Ca, Vol.xxiii, 1973,P. 221.
15)Ibid, P.230.
16)Alc , LL.10-14.
17)Ibid, LL.15-16.
18)Ibid, LL.17-18.
19)Ibid, L.301.
20)Norwood , G., Greek Tragedy, London, 1920,P.189.
Hadley , W.S., Ed. Alcestes, Cambridge, 1934,P.xi.
21) Alc.L.156.

22)Ibid, L.145.
23)Ibid, L.198.
24)Ibid, L.247.
25)Ibid, L.250.
26)Ibid, L.280ff.
27)Ibid, L.300.
28)Ibid, L.381.
29)Ibid, L380.
30)Ibid L.382.
31)Ibid, L.383.
32)Ibid, L.614.
33)Ibid, LL.619-624.
34)Ibid, LL.627-628.
35)Ibid, LL 337-341.
36)Ibid, LL.662-665,L.724.
37)Ibid, L.694,696,L.702.
38)Ibid, LL.682-684.
39)Ibid, L.691.
40)Ibid, L.703-704.
41)Ibid, L.712.
42)Ibid, LL.734-737.
43)Ibid, LL.879-880.
44)Ibid, L.939.
45)Ibid, L.941.
46)Ibid, LL.954-960.
47)Ibid, L.940.
48)Ibid, L.1008ff.

كان يوريبيديس قد هيأ الأذهان من قبل إلى التدخل الإلهى لإنقاذ " ألكســـتيس" مـــن المـــوت ، و"أندروماخى" من المعاناة ، وذلك فى صلاة الجوقة إلى "زيوس" . إنظر الأبيات ٢٢٠-٢٢١.

49)Ibid, LL.1064-1069,1079-1082.
50)Ibid, L.1048.
51)Ibid LL.1119-1134.
52)Med., L.13.
53)Ibid, LL.17-18.
54)Moore ,Jphn. A, Sophocles And Arete, Cambridge Univ. Pr.,1938 PP.34-36.
55)Wright,F.A.,Feminism In Greek Literature From Homer To Aristotle, Knnikat Pr., London,1969,P.91.

Trypanis, C.A., Greek Poetry From Homer To Seferis, Faber&Feber, London , 1981, P.168

56)Med., L.86.
57)Ibid, LL.225-229.
58)Ibid, L.218.
59)Ibid, LL.217-276, 340-351.

لاشك أن ضيق الوقت كان أقوى عناصر الضغط علـــى مشـــاعر "ميديـــا" ، ممـــا أدى إلـــى اضطرابها وقلقها ، فلابد أن تقع أحداث خطيرة قبل أن ينتهى ذلك اليوم. إنظر:

De Romilly , Jacqueline , Time In Greek Tragedy , Cornell Univ. , pr., 1968, P.9.

60)Med., LL.255-258.
61)Ibid, L.445.
62)Ibid, LL.446-458.
63)Ibid, LL.502-508.
64)Ibid, LL.530-531.
65)Ibid, LL.536-537.
66)Ibid, LL.551-568, 593-597.
67)Ibid, L.579.
68)Ibid, L.598.
69)Ibid, LL.610-612.
70)Med., L. 615.
71)Med., Louise. M,A,A Study In The Medea,G&R., Vol.12,1943,P.18.
72)Ibid, L.617.
73)Ibid, LL.663-669.
74)Ibid, LL.713-722.
75)Wright, F.A., Op.cit. , P.123.
Knox ,B.M.W,The Medea Of Euripides,Yes, Vol.25,1977,P.202.
76)Med., LL.731-732.
77)Ibid, LL. 869-870.
78)Ibid, LL.873-876.
79)Grube, G.M.A,Op.cit.,PP.158-159.
80)Med., L.908.
81)Ibid, LL.959-963.
82)Ibid, L.965.
83)Ibid, L.1125ff.
84)Ibid, LL.1136-1139.
85)Ibid, LL.1242-1250.

إن قتل الأطفال فعل مرعب من الصعب أن يتفهمه الجمهور أو يتقبله مالم يصور " يوريبيدس" تردد " ميديا " الطويل وتمزقها النفسي البالغ الشدة قبل الإقدام على تنفيذه . إنظر:

Easterling , P.E., The Infanticide In Eurpides Medea,Yes,25,1977, P.188.

86)Latimore, R., Story Patterns In Greek Tragedy , London,1964, P.37.

87)Med., L. 1310,1326.

88)Ibid, L.817.

89)Ibid, L.1366.

90)Ibid, L.1370

91)Ibid, L.1369.

92) إنظر نيجيم لطفى عبد الوهاب ، المرجع السابق ، ص ٩٩ .

93)Plato, Politeia, Bk.VII.